سورية واحتمالات التغيير

حمود الشوفي*

■ تجتاج سورية اليوم صحوة حائرة. فالنظام الذي ظل متماسكا لاربعة عقود طويلة، يبدو وكأنه قد فقد اتجاهه، واخذ يتخبط في سيره، ويقدم على خطوات لا يمكن تفسيرها الا بعدم الاهلية: وتكشف عمق المأزق الذي وضع النظام نفسه فيه من موقفه العلني المستهتر بمسلسل الاغتيالات التي يتهم النظام بارتكابها الى تردده ازاء قرارات مجلس الامن المتعلقة بلبنان الى هذا التخبط غير المعقول سواء في معالجة الوضع الاقتصادي المتأزم، ومشكلة الفساد السرطاني المزمن في الادارة واجهزة الامن، او في سياسته العربية المتذبذبة ومواقفه الدولية الخائفة.

ويبدو ـ في المقابل ـ ان القوى السياسية السورية ـ بدأت تلمح بريق امل في امكانية التغيير، ولكن كثرتها حتى الان حائرة بين ان تتغلب على شكوكها تجاه امريكا وتصديق ما تدعيه من رغبتها في تغيير النظام لاقامة نظام ديمقراطي بديل، وبين ان تبحث عن طريق وطني خاص بسورية يبتعد ما امكن عن التهويش السياسي ليقترب ما امكن من ايجاد الصيغة العملية البديلة لهذا النظام باعتبار ان التغيير قد اصبح امرا محتملا. وان المأزق الحالي الذي يجد النظام نفسه فيه لا يمثل الا جزئيا فقط، المشكلة العويصة التي تواجهها سورية كمجتمع مدني، وكيان سياسي وجزء حي من الامة العربية.

ولا بد لأي تحليل يستهدف اخراج سورية من محنتها ان يبدأ بتفهم المشكلة السورية التي يصمم النظام منذ بداية هذا القرن على تجاهلها عمدا مما اوقعه في مأزقه العويص الراهن وجعل التغيير، تبعا لذلك، امرا ليس له بديل.

ان الطائفية السياسية هي اصل المشكلة السورية، وان اي حل حقيقي ليس امامه الا ان يبدأ من الاعتراف بهذا الواقع، لا من اجل القبول به، ولكن من اجل تغييره بشكل يحفظ وحدة الوطن والشعب، ويجنبنا اراقة دماء غزيرة كما حدث في ثمانينات القرن الماضي، وكما يمكن ان يحدث اذا انقلبت الصحوة الحائرة الراهنة الى صحوة يائسة لا تستطيع في الاجواء الدولية الحالية الا ان تنقلب الى انفجار شعبي شامل.

ونعني بالطائفية السياسية ان بعض السياسيين، مدنيين وعسكريين، قد استغلوا الطائفية المذهبية لاغراض انتهازية فخلقوا لنظامهم عصبية طائفية هددت ولا تزال تهدد وحدة الشعب كله، وادت الى ضرب المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لسورية، والى شل دورها القومي الطليعي الذي لا تزال سورية قادرة عليه اذا تمكنت من ان تتجاوز هذه الازمة بوعي ناضج، وبعقلانية منفتحة قد تؤدي الى نوع من العقد الاجتماعي الجديد الذي دعت، ولا تزال تدعو اليه معظم القوى الحية لشعبنا والتي حاول النظام منذ ان تسلم الدكتور بشار الاسد رئاسة الجمهورية ان يبشر به بين حين وآخر، انه كذلك يدرك استحالة الابقاء على الوضع الراهن المتأزم، وانه يريد التهيئة للوصول الى نفس هذا العقد الاجتماعي الذي دعت له معظم فصائل المعارضة السورية في الداخل والخارج. وقد تتابعت وعود السلطة بالتقليل من سيطرتها المطلقة ومن احتكارها لحق العمل السياسي، والغاء حقوق المواطنين جملة وتفصيلا على مدى اربعين عاما. وقد ايدت التصريحات الشجاعة للاستاذ عبد الحليم خدام النائب السابق لرئيس الجمهورية وجود مثل هذه التطلعات الاصلاحية عند النظام، عندما روى كيف انه قدم للرئيس بشار الاسد، بناء على طلبه، مذكرة للاصلاح السياسي تنوسيت ثم ماتت، وعاد فقدم له مذكرة ثانية لاصلاح اقتصادي تعرضت لنفس المصير، ومذكرة ثالثة لاصلاح اداري لم يكن حظها بأحسن من حظ اختيها السابقتين، ولا يستطيع الانسان، ازاء ذلك الا ان يستنتج بأن النظام لم يكن جادا في اية عملية اصلاحية، سياسية كانت او اقتصادية او حتى ادارية.

اننا نعلم تماما، كما يعلم كل مواطن وكل متتبع لاوضاع سورية، ان النظام انما يستند وجوده كله الى قوته الطائفية في الجيش، وان الادعاء بالانتماء البعثي او القومي او التقدمي ليس سوى ادعاءات، لان النظام في اساسه نظام عائلي ديكتاتوري متفرد، يستغل انتهازيا ابناء الطائفة العلوية ليحتمي بها، ويسمح لبعض البارزين المتنفذين فيها، ان يعيثوا في الارض فسادا، وان يجمعوا الثروات والمنافع التي تجرها لهم سلطة غير مقيدة، وبدون رقابة او حساب او مسؤولية.

وعندما اختارت اجهزة النظام الدكتور بشار الاسد ليخلف اباه، فان غالبية القوى السياسية الحية في المجتمع، من داخل النظام ومن خارجه، اي ان غالبية فصائل المعارضة العلنية والمعارضة الخفية، قبلت صعود الابن مكان ابيه، لان الامل كان يحدوها بان يتمكن الدكتور الشاب، والجيل الذي ينتمي اليه من اصحاب النظام، من تطوير نظامهم باتجاه انفتاح حقيقي على الشعب، ذلك لان بشار الاسد وامثاله قد حصلوا ثقافة حديثة معقولة، وعرفوا كيف يعيش العالم وتعيش الشعوب خارج الحدود، وتنتفي في حياتهم الشخصية اية شبهة بأنهم سبق ان تعرضوا لأي تمييز او اضطهاد او استعلاء، هذا ان لم نقل ان العكس هو الصحيح.

وتمر ايام الانتظار على شعبنا طويلة، ثقيلة وقاسية. والنظام جامد في مكانه. وبدلا من اعتبار مأزقه الدولي في لبنان فرصة له ليعيد النظر في جموده، ويبدأ سعيا حثيثا يقربه من الشعب حتى يبرر لشعبنا وللعالم بأن مأزقه الخانق يهم سورية كلها بدلا من ذلك فان النظام، وباعلانه عن اسماء وزرائه الجدد، وعن التغييرات الشكلية في واجهته السياسية فانه انما يعلن في واقع الامر، اصراره على نهجه العائلي الدكتاتوري المتفرد، واضعا من جديد ابناء الطائفة العلوية وكافة ابناء شعبنا امام تحد جديد وكبير، الا وهو كيف الخروج بسورية من ازمتها الراهنة باقل ما يمكن من الخسائر، واكثر ما يمكن من ضمانات النجاح.

وحتى نتوصل الى نتيجة منطقية معقولة، لا بد ان نتذكر الحقائق التالية، بوصفها حقائق واقعية لا يستطيع اي تفكير جاد ان يقفز فوقها او يتجاهلها.

الحقيقة الاولى: ان النظام السوري قد وضع نفسه في مأزقه الراهن نتيجة لنوع من العجز والقصور ومحدودية الادراك يصعب على الانسان تصديقه. فما هو الداعي الى سياسة الاغتيالات البشعة هذه؟ واذا كان المسؤولون عنها عناصر من النظام، وليس النظام كله، فلماذا هذا التردد في الكشف عنهم؟ وعدم الترحيب بالتحقيق الدولي لمعاقبة المتورطين والمنفذين لجريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري وكل القادة الذين تم اغتيالهم من معارضي السياسة السورية في لبنان وآخرهم الشهيد جبران تويني؟ واذا كان النظام او بعض «مفكريه» يتطلعون الى الاغتيالات التي تمارسها علنا السلطات الاسرائيلية كهاد ومعلم لهم، فانهم يقعون في وهم قاتل، وهم الظن بأنهم يستطيعون خرق القانون الدولي، وارتكاب ابشع الجرائم دون حساب كما تستطيع اسرائيل. لأن الفارق واضح جدا بينهم وبينها. فاسرائيل تتحكم بالسياسة الامريكية في الشرق الاوسط. اما هم فانهم جزء ممن تتحكم بهم هذه السياسة الامريكية ـ الاسرائيلية. واذا تمكن النظام السوري بالخروج من مأزقه الحالي بشكل ما (مثلا يجعل الخدمات التي يقدمها للاحتلال الامريكي في العراق علنية واكثر فعالية، او بتنازله عن الجولان المحتل رسميا لاسرائيل، او بما يشبه ذلك) فان هذا الخروج من المأزق لا يقدم ولا يؤخر شيئا في توصيف الأزمة السورية، ولا يريح اي وطني من عبء البحث عن ايجاد مخرج حقيقي لها.

الحقيقة الثانية: ان امريكا لن تغزو سورية عسكريا، كما غزت العراق، واسباب ذلك واضحة جدا، فأمريكا قد غزت العراق لان نظام البعث فيه بقيادة الرئيس صدام حسين كان قد هيأ كادرا متقدما من علماء عراقيين وعرب، وطور الجامعات ومراكز الابحاث لتزداد كفاءة هذا الكادر العلمي وتتوسع قاعدته، وكان قد وضع هدفا واضحا له هو استقلال القوة العسكرية العربية بجعلها نتيجة جهد وطني محض. وكان العراق في الوقت ذاته، وبالاستفادة من خبراته العلمية المتنامية يقوم بعملية تحديث شاملة لبناه الاقتصادية التحتية وتطوير كل مصادره الهائلة، الصناعية والبترولية والزراعية مما جعل من العراق تهديدا مستقبليا محتملا لاسرائيل. وادى ذلك الى تكاتف قدرات حزب الليكود الثقافية والاستخبارية مع القدرات السياسية للانجيليين المسيحيين المتطرفين فتمكن حلفهما من الاستفادة السريعة من حدث 11 ايلول (سبتمبر) سنة 2001 ودفعا بامريكا الى غزو العراق واحتلاله، ومع اقتراب السنة الثالثة للاحتلال على نهايتها يلمس كل متتبع للسياسة الامريكية وعيا شعبيا بهذه الورطة، وتصميما على عدم تكرارها وحتى لو اتى بعد بوش رئيس جمهوري، فان تغيير السياسة الحالية سيكون امرا مؤكدا. وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان الحكومة الامريكية ستوقف حملاتها الاعلامية ضد النظام السوري او انها ستبدي انزعاجها اذا تغير بطريقة ما. ولكنه يعني بالتأكيد ان امريكا لن تقوم بدور ايجابي حقيقي لاسقاط النظام.

الحقيقة الثالثة: ان سورية محظوظة بان امريكا لا تستطيع القيام بمغامرة عسكرية جديدة لا ضد سورية ولا غيرها، وقد يكون ما يجري في العراق درس مفيد لسورية وذلك بان تتجنب وبأي شكل كان تكرار المأساة الدامية التي تسبب بها الاحتلال الامريكي للعراق. فبالرغم من كل النشاط الاعلامي، وبالرغم من كل الادعاءات التي تبرر غزو العراق بالرغبة في تحويله الى واحة ديمقراطية في منطقتنا، فان ما يجري واقعيا على ارض الرافدين هو التحضير الواعي لنكبة قد تصبح ـ اذا نجحت فيها امريكا ـ من اقسى ما عرفناه في تاريخنا الطويل، وذلك باشعالها حربا اهلية على اساس طائفي صريح. فالجيش «العراقي» الذي تدربه وتموله وتبنيه امريكا هو جيش يقتصر الانتساب اليه بشكل عام على الشيعة فقط، كما ان قوات الشرطة، وقوات الأمن الداخلية التي تمولها وتدربها امريكا تقتصر كذلك على منتسبين من الشيعة، وبينما كان الشعب العراقي بكل اتجاهاته السياسية المختلفة يعرف هذه الحقيقة طوال الوقت، ومنذ ان حلت امريكا الجيش العراقي واخذت ببناء جيشها الجديد هناك فان العالم الخارجي لم يطلع على هذه الحقيقة الا مؤخرا بعد ان اضطرت امريكا وتبعتها الحكومة «العراقية» للاعلان عن وجود جهاز خاص ضمن الشرطة العراقية، وضمن اجهزة الامن العراقية، له مهمة واحدة فقط وهي تقتيل العرب السنة لاشعال فتيل الحرب الطائفية.

الحقيقة الرابعة: ان التجارب والمنطق السليم، والوضع العربي المهترئ تقطع كلها بأنه لن تتحرك قوة عربية او دولية لنجدة شعب سورية، وعندما نأخذ بالاعتبار الحقيقة الثانية المتقدمة، فان التدخل الدولي يغدو مستحيلا، ويحسن بنا في هذا الصدد ان نتذكر احداث لبنان وكيف ومتى طلبت امريكا من سورية ان تتدخل سنة 1976 بعد ان كانت المأساة قد اصابت كل اسرة تقريبا في لبنان. ونسأل الذين يأملون ان يأتي حل الأزمة السورية من واشنطن، او حتى من نيويورك هل انهم يودون ان تجري اولا انهار الدماء السورية لكي يتحرك ضمير الانسان فيدفع الامم المتحدة للتدخل؟ وهل ان القوى السياسية الحية في سورية مضطرة للتخلي عن مسؤولياتها الوطنية على امل ان ينهض غيرها بها؟

الحقيقة الخامسة والاخيرة هي ان النظام العائلي المتفرد لم يعد قادرا على البقاء في تركيبته الراهنة، ولسنا بحاجة لان نكرر هنا ما يعرفه كل المواطنين والمراقبين من تردي الاوضاع الداخلية، وخسارة النظام لاحترام الناس وعجزه عن تخويفهم باللجوء الى المزيد من القمع والبطش والارهاب كما حدث بين 1966 والى 2000 لان الاوضاع الدولية قد تغيرت، ولانه لم يعد هناك من هو مستعد للتغطية على النظام الاسدي، ولان شبكة الاتصالات العالمية «الانترنت» تجعل ارتكاب المجازر والتغطية عليها في الوقت ذاته امرا مستحيلا او يكاد، ولان هذا النظام فوق كل ذلك يكشف عن عجز واضح في ادارته للمأزق الذي يحاصره بخروجه من لبنان فيتصرف وكأنه يخطط ليعيد التاريخ الى الوراء، ويعود جيشه الى لبنان.

والنتيجة الحاسمة التي نتوصل اليها هي ان النظام الطائفي القائم في سورية لا بد له ان يتغير وليس مهما من وجهة نظر وطنية، ان يبقى او لا يبقى بشار الاسد فهذه قضية ثانوية ووقتية قد يعالجها او لا يعالجها مجلس الامن الدولي عندما تنتهي لجنة التحقيق باغتيال الرئيس الحريري من اعمالها. وليس مهما ابدا لسورية ومستقبلها وتجنيبها كارثة محتملة مصير شخص او مجموعة من الاشخاص. واعتقد ان الاكثرية الكبيرة من شعبنا العظيم لا تحمل لبشار الاسد شخصيا حقدا او ضغينة. والسؤال الكبير المطروح على كل العاملين في الحقل العام وعلى كل الوطنيين والغيارى على الارض والعرض، على الحاضر والمستقبل، السؤال هو كيف يمكن ان يتم التغيير بأقل ما يمكن من الخسائر واكثر ما يمكن من امكانات النجاح؟

ويبدو ان التغيير يمكن ان يتم باحدى طريقتين لا ارى ثالثة لهما:

الطريقة الاولى هي ان يتآكل شيئا فشيئا الامل الشعبي الذي انتعش مع اهتمام مجلس الامن الدولي بلبنان واخراج القوات السورية منه وما رافق ذلك من تصاعد مفاجئ وعارم لمد شعبي هائل في لبنان. وعندما يتحول الامل في القلوب الى يأس وقنوط فلن يكون مستغربا او غريبا ان ينفجر الاحتقان دفعة واحدة مثلما حدث في رومانيا مثلا، او ان يتدخل مجلس الامن من جديد مثلما حدث في لبنان.. ان تغييرا كهذا قد يكون باهظ التكاليف، ويصعب ان يقتصر على تغيير بعض الاسماء وانما قد يصيب وحدة شعبنا ذاتها في الصميم بكل ما يمثله ذلك من مخاطر تطال سورية كما تطال العرب والاسلام معا.

والطريقة الثانية لتغيير محتمل هي الطريقة العقلانية التي ندعو اليها، والتي تبدأ بحوار حقيقي بين اصحاب النظام وبين كل القوى السياسية الموجودة والمعروفة بما فيها حزب البعث الحاكم نظريا والاخوان المسلمون، ويهدف الحوار الى ايجاد صيغ عملية للانتهاء من التفرد واحتكار العمل السياسي والاتفاق على اقامة وضع سياسي منفتح للجميع دون استثناء ولا يثير مخاوف احد من ان يصبح كبش الفداء لعملية التغيير المطلوبة وارى انه بين كل القضايا المعروفة والتي اشبعت درسا وتحليلا من مختلف الجهات والتي لا تشكل في الحقيقة عقبات جدية تبرز قضيتان محددتان لا بد من الحوار الجاد والمسؤول والعلني حولهما باعتبارهما المدخل المقبول ليكون الحوار جادا وليصل الى وضع جديد بالفعل. والقضيتان هما: الجيش والديمقراطية.

فالجيش الذي يشكل الدعم الحقيقي للنظام الطائفي القائم لا بد من اعادته الى وضعه الطبيعي ليصبح جيشا وطنيا مهمته الوحيدة هي الدفاع عن الوطن. ولكن عندما نأخذ بالاعتبار حرص كل القوى السياسية على وحدة البلاد ووحدة الشعب فانه يمكن ان تأخذ عودة الجيش الى وضعه الطبيعي فترة زمنية معقولة تتجنب الهزات ما امكن وذلك بأن يتوازن التقدم بهذه العملية مع بناء نظام ديمقراطي دستوري سيشكل الضمان الحقيقي لحفظ وحدة الشعب ولقبول الجميع بالجميع.

اما قضية الديمقراطية فانها كذلك يجب ان تعالج من منظور حرصنا على وحدة الشعب وعلى ممارسة الحرية بمسؤولية دون خوف او تخويف، ولعل المطلوب منا ان نبتعد ما امكن عن الصيغ الشكلية التي سبق ان جربت فيما مضى، ولانها كانت مجرد تقليد لنظم اجنبية قلم تستطع ان تترسخ وتضرب بجذورها في حياتنا الاجتماعية وان تحمي نفسها بالتالي من مخاطر الانقلابات التي عانينا منها ولا نزال. واعتقد ان اوضاعنا الاجتماعية والثقافية تملي علينا ان نقترب من مبدأ الشورى وان نبتعد عن التمسك الحرفي بمبدأ حكم الاغلبية العددية. ذلك لان الشورى تعني انه بعد التشاور يتم التوصل الى اتفاق يحظى بما يقترب من الاجماع، ويصعب ان يأتي اتفاق قائم على الشورى ممثلا لرأي جهة واحدة، بل سيكون على الاغلب ممثلا وسطا معقولا لكل الجهات. وليس عسيرا على الاخصائيين في القانون والدستور وفي فقه القوانين، التوصل الى صيغة او صيغ تلبي حاجتنا للاخذ بمبدأ الشورى بدلا من مبدأ حكم الاغلبية العددية، وقد يكون ذلك باحداث مجلسين تشريعيين مثلا كما هو الحال في بلاد كثيرة، وقد يكون بخلق هيئة عليا تمثل كل القوى السياسية والعسكرية والمهنية فيها تتم الشورى المؤدية الى اتفاق.

ودون الدخول في مزيد من التفاصيل فان الامر الحاسم باعتقادي هو الاستجابة الصادقة المخلصة من كل العاملين في الحقل العام لهذا الامل الذي يلوح في الافق والعمل الجاد السريع لحماية الامل من التلاشي، والتوصل ببلدنا الحبيب الى الانتقال من هذا النظام العائلي الطائفي المتفرد الى نظام يعيد للمواطن الفرد كرامته وحقوقه، ويعيد لشعبنا حرياته الطبيعية، ويعيد سورية الى مكانها الطبيعي والطليعي على الصعيد القومي وعلى كل صعيد انساني آخر.

* كاتب من سورية

كما في العراق كذلك في فلسطين

زهير اندراوس*

■ يعتبر مركز يافه للأبحاث الاستراتيجية من أشهر مراكز الأبحاث في اسرائيل. وهذا المركز، التابع لجامعة تل أبيب، يضم عددا من الباحثين الاستراتيجيين الذين خدموا سنوات طويلة في جيش الاحتلال الاسرائيلي. وتعتبر التقارير الاستراتيجية التي يصدرها مرجعا ليس في اسرائيل فقط، بل في دول العالم الغربي، كما ان صناع القرار من المستويين السياسي والأمني يعتمدون على هذه التقارير ويخططون سياسات اسرائيل استنادا الى ما يرد فيها، طبعا بالاضافة الى مراكز الأبحاث الرسمية الأخرى وفي مقدمتها قسم الأبحاث التابع لشعبة الاستخبارات العسكرية في جيش الاحتلال (امان) والشاباك والموساد. وعلى سبيل الذكر لا الحصر، أصدر المعهد تقريرا جاء فيه ان الجيش الاسرائيلي باستطاعته التغلب بالضربة القاضية على جميع جيوش الدول العربية مجتمعة، مشددا على أن التكنولوجيا التي طورها هذا الجيش حولت اسرائيل الى دولة عظمى من حيث ترسانة الأسلحة التي تملكها.

هذا الأسبوع أصدر المعهد اياه تقريرا تحت عنوان «الخروج من العراق»، تطرق فيه الباحث افرايم كام الى ظروف الاحتلال الأمريكي للعراق وتبعاته وتداعياته، وفحص امكانية استمرار التواجد العسكري الغربي في بلاد الرافدين. وقال الباحث الاسرائيلي في تقريره المسهب ان الادارة الأمريكية لا تعرف متى ستسحب قوات الاحتلال من العراق، وانها لم تتمكن حتى الآن بسبب الظروف الصعبة في العراق من تحديد جدول زمني للانسحاب من العراق بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على الحملة العسكرية الامبريالية، التي استهدفت نظام الرئيس صدام حسين.

اللافت أن معد التقرير يعترف بشكل واضح أن الادارة الأمريكية ستعمل بكل ما أوتيت من قوة عسكرية لمواجهة المصاعب في العراق، وتحديدا الأعمال التي تنفذها المقاومة العراقية والتي تثبت بشكل قاطع أن الاحتلال لم يتمكن من تشكيل جيش عراقي او شرطة عراقية للحفاظ على الأمن والعمل على الاستقرار في هذا البلد الذي يشهد يوميا أعمالا مناهضة للتواجد الأجنبي على أرضه، هذا التواجد الذي دنس الأرض وانتهك العرض. على أية حال يؤكد الباحث الاسرائيلي أن ادارة واشنطن الشريرة والعدوانية تسعى بخطى حثيثة الى تشكيل نظام حكم موال لها لكي يتسلم زمام الأمور بعد انسحاب قوات الاحتلال الأمريكية من العراق. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المضمار: هل سيتمكن النظام الموالي للعدو من السيطرة على زمام الأمور وادارة دفة الحكم؟ الجواب بطبيعة الحال هو لا، اذ أن التاريخ القديم والمعاصر علمنا أن وكلاء الامبريالية في جميع أرجاء العالم مصيرهم في نهاية المطاف الى مزبلة التاريخ في أحسن الأحوال أو الى المقصلة.

الرئيس الأمريكي جورج بوش، يواصل تكبّد الخسائر في العراق ولكنه لا يجد مفرا للخروج من الوحل العراقي. وحسب استطلاعات الرأي العام التي تجرى في الولايات المتحدة الأمريكية فان شعبيته في تدن مستمر، وأكثر من ذلك فان مصداقيته وصلت الى الحضيض، بموازاة ذلك بدأت تطفو على السطح بقوة حركات وتيارات غربية تعلن على الملأ بأنها غير مستعدة لدعم مواصلة الاحتلال الأمريكي للعراق، لأن عدد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في العراق في ازدياد مطرد، وحياة الانسان في الشرق والغرب مهمة، وبالتالي فان كل يوم يمر دون ايجاد حل للأزمة العراقية يزيد الطين بلة، ويدخل ادارة بوش وعصابة المحافظين الجدد وحلفاءهم من اليمين المسيحي المتطرف في دوامة، من الصعب ان لم يكن مستحيلا أن يتمكنوا من الافلات منها.

وبرأينا فان المعركة على مستقبل العراق قد حسمت. الادارة الأمريكية فشلت في تمرير مخططاتها الرهيبة، ولكنها لم تتمكن حتى الآن من ايجاد الحل السحري للانسحاب باحترام وتقليص حجم الأضرار الناجمة وتحاشي ظهور الانسحاب على أنه فشل ذريع. لكن مهما فعلت فان انسحابها لا يمكن أن يفسر الا باعتباره رضوخا للمقاومة العراقية، أما النظام الموالي فمصيره الى الزوال مباشرة بعد انتهاء الاحتلال، على حد تعبير الباحث الاسرائيلي، غير المشبوه بغيرته على العراق أو على الأمة العربية. ولا غضاضة في هذا السياق ان نذكر «حكام» العراق المرضي عنهم من الادارة الأمريكية بأن الشعوب التي تساوم المستعمر على حريتها توقع في نفس الوقت على وثيقة عبوديتها.

من ناحية أخرى فسياسات واشنطن في منطقة الشرق الأوسط، وتحديدا في قضية التعامل مع حركة المقاومة الاسلامية (حماس)، أثبتت فشلها الذريع. فاعلان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عن نيته استقبال قادة حماس لم يأت من فراغ ولا يدور في فراغ، وهو بمثابة صفعة قاسية لاملاءات بوش وادارته، والاعلان الفرنسي عن تبني الموقف الروسي هو رسالة واضحة الى واشنطن بأن عهد الهيمنة والعنجهية الأمريكية بدأ في الانهيار، وها هو رئيس فنزويلا هوغو تشافيز، يوجه دعوة لقادة حماس لزيارة بلاده، الأمر الذي يشكل تحديا كبيرا لواشنطن وربيبتها اسرائيل. وباعتقادنا فان العديد من الدول ستنضم الى التيار الرافض لرفض حماس، وستحذو حذو روسيا.

في الوقت ذاته لا بدّ من ملاحظة أن هذه الدول بطبيعة الحال لم تتبن مواقف حماس السياسية او الدينية، انما قامت بتوجيه الدعوة الى قادة الحركة لأنها تؤمن قلبا وقالبا بأنهم انتخبوا في انتخابات ديمقراطية، والشق الثاني في المعادلة ان هذه الدول وجدت في معارضة السياسة الأمريكية فرصة سانحة ومناسبة ملائمة لتشكيل محور عالمي لا يرقص وفق الموسيقى النشاز التي تلحنها واشنطن وتعزفها بسادية مطلقة، ضمن دول أخرى، دولنا العربية من المحيط الى الخليج.

وعليه في مقدورنا القول ان اعلان التمرد على الولايات المتحدة انطلق، كرة الثلج بدأت تتدحرج، وأقوال الدكتور يوسي بيلين، زعيم حزب ميرتس ـ ياحد، المحسوب على ما يسمى اليسار الصهيوني الاسرائيلي، بأن على بوش وأولمرت التروي في قضية التعامل مع حماس لكي لا يجدا نفسيهما في المستقبل القريب يلهثان وراء الحركة للتفاوض معها، هي أقوال صحيحة للغاية، والأيام بيننا.

* رئيس تحرير صحيفة «كل العرب» الصادرة في الناصرة

صراع الحضارات وصراع الجينات في قضية الاساءة لنبي الاسلام!

لميس عبدالله*

الفايكنغ (الدنمارك والنرويج حاليا) تركوا في اوروبا وجزر المحيط عشرات الملايين من الذكور يحملون جينات احد اكبر المغتصبين وسفاكي الدماء الذين عرفتهم البشرية...

(بريان سايكس: عالم جينات انكليزي)

رغم ان اوروبا عرفت الزراعة بعد ما يقارب الـ4000 سنة من انتشارها في منطقة الشرق الاوسط، الا ان مناطق عديدة من اوروبا بقيت حتى بعد ذلك التاريخ تعتمد حياة الصيادين في طريقة عيشها، وتشير الاثار التاريخية الى ان سكان الدنمارك والنرويج عاشوا على اكل الاسماك والبان القطعان البرية في الوقت الذي كان جيرانهم في القارة قد تقدموهم بالف سنة على الاقل في زراعة المحاصيل الاساسية. هذه الحياة البدائية، والتي تشبه عندنا حياة سكان الاهوار في العراق (المعدان)، تفرض عزلة واختلافات ثقافية يعرفها كل من عرف معدان الاهوار. على كل حال انها عزلة لم تدم عند السكان الاسكندناف، ففي القرن الثامن الميلادي فوجئت السواحل الشمالية لاسكتلندا بـ(مشاحيف)* هؤلاء الفايكنغ تثب على شواطئها فتدمر القرى والاديرة وتنهبها وتقتل الرجال وتغتصب النساء جملة. كان الفايكنغ وثنيين في ذلك الوقت، وحتى بعد ان وصلت موجتهم التي روعت كل اوروبا الى مدن ايطاليا الجنوبية مرورا بفرنسا واسبانيا قبل ان ترتد الى حدودهم الضيقة، بقيت بلاد الاسكندناف اخر من دخل المسيحية من البلاد الاوروبية.

في تسعينات القرن الماضي حاول عالم الجينات الانكليزي بريان سايكس، وهو رائد في تطبيق تحليلات الحامض النووي على حفريات تاريخية قد يصل عمرها الى آلاف السنين، حاول ان يجد التناسب الجيني لسكان اسكتلندا المشهورة بعشائرها الكبيرة والقديمة، ولدهشته وجد ان آل (ماكدونالد) اشهر تلك العشائر واكبرها واغناها واكثرها انتشارا في العالم يعود نسبها الى سمرلد الشخصية الشهيرة في التاريخ الاسكتلندي اما نوعية كروموسوماتها الذكرية فتعود الى نوع جاء من النروج، اي ان اصلهم من غزاة الفايكنغ. وبما ان آل ماكدونالد يبلغ تعدادهم في اوربا وامريكا واستراليا ونيوزيلندا حوالي اربعة ملايين شخص، نصفهم على الاقل من الذكور، فان سايكس المندهش لم يجد تفسيرا للنجاح الهائل الذي حققه ذلك الرجل من الفايكنغ في ان ينسخ كروموسومه الذكري مليوني مرة في مدة لا تزيد عن الف سنة! ان الجواب عن ذلك لا يكمن حتما في ميزة خاصة لذلك الكروموسوم جعله يتميز هذا التميز الذي كسف كروموسومات ملايين من رجال اخرين عاشوا في زمنه او بعده باجيال وضاعت آثار عقبهم، بل ان السبب يكمن بلا شك في الاغتصاب والاستحواذ على اكبر قدر من النساء.. وايضا في الاستحواذ على الاراضي بالقوة ومراكمة الثروة والسلطة وحصرها في ذكور العائلة الكبار الامر الذي حال دون تفتتها عبر القرون، بل وأدى في النهاية لما نعرفه اليوم من اقامة امبراطورية مطاعم ماكدونالد.. والتي قد تعادل ثروتها الان ثروات عدة دول مجتمعة! يا له من انجاز لا يبز لمغتصب واحد! على كل حال ان سايكس اكتشف ان هذا الانجاز قد تم بزه فقط من قبل القائد المغولي جنكيز خان، ففي دراسة من آسيا وجد ان هناك كروموسوما بعينه تم تكراره 16 مليون مرة يمتد على مساحة الامبراطورية المغولية التي نشات بفعل غزوات المغول في القرن الثالث عشر، وينعدم خارجها.

كما هو الحال في الفايكنغ، فقد كان المغول اعصارا بشريا فظيعا نشر الدمار والترويع في كل البلاد التي مر بها، ثم انحسر الى حدوده الضيقة في منغوليا دون ان يترك اثرا اللهم الا هذا النجاح الهائل لانانية رجل واحد اغتصب هو وابناؤه عشرات الاف من نساء البلاد المنكوبة ليخلد جيناته الذكرية في عشرات الملايين من النسخ التي يحملها الرجال حتى اليوم. ولكن على عكس الفايكنغ، فان دخول الكثير من احفاد جنكيزخان الاسلام وخضوعهم لنظامه الاقتصادي الذي يحول دون تراكم الثروات قد حال بينهم وبين ان يكرسوا نجاحهم البيولوجي ويحولوه الى مراكز قوى اقتصادية مستمرة، رغم ان الكثير منهم قد تولى منصب السلطان في اكثر من بلد اسلامي. والطريف ان نسبتهم ترتفع الان في قبيلة (هزار) الفقيرة على الحدود ما بين باكستان وافغانستان والتي يعتقد افرادها انهم يتحدرون من الخان الاعظم.

في جزيرة ايسلندا يتكرر سلوك الفايكنغ بصورة اكثر وضوحا: المسح الجيني وجد ان 70 % من الرجال يحملون كروموسومات الفايكنغ مقابل 30 % للكلت، مع العلم ان الكلت وهم سكان اسكتلندا وآيرلندا تم استجلابهم للجزيرة من قبل الفايكنغ الرجال كرقيق للعمل في الارض والنساء للاستيلاد.

هذا السلوك الهمجي للغزاة الفايكنغ في سالف الزمان هل ترك لعنته المستمرة على من كانوا ضحاياه من سكان اوروبا؟ اشك في ان القارئ العربي وفي ذهنه الاستعمار الاوروبي وفضائح ابو غريب (هذا اذا لم تكر ذاكرته الى الحروب الصليبية) سيتردد في اختيار نوع الاجابة. ومع ذلك فالتاكيد العلمي يأتي على شكل ارقام من دراسات المسح الجيني: في جزيرة بولينزيا في المحيط الهادي الجينات الاوروبية حلت محل الثلث من جينات السكان الاصليين، في بيرو في امريكا الجنوبية رفع المستعمرون الاسبان النسبة الى النصف بالضبط، اما في كولومبيا فنسبة الجينات الاوروبية تصل الى 94 % في حين ترك السود الذين تم استجلابهم مع المستعمرين كرقيق جيناتهم بنسبة 5 % اما السكان الاصليون لكولومبيا فلم يترك لهم الا نسبة 1 % اي انه تم اجتثاث العنصر الذكري الكولومبي اجتثاثا بيولوجيا شبه تام! سكان بريطانيا السود الحاليون يحمل ربعهم جينات ذكرية اوروبية، اما الافارقة الامريكان فيحمل نصفهم هذه الجينات، منهم وزير الخارجية السابق كولن باول الذي يحمل من جهة الأم جينات آل بوش انفسهم! ومثل عنترة بن شداد في الجاهلية الذي رفض ابوه الاعتراف به الا بعد ان كر في الحرب، فقد تم تقريب (لااعتراف) كولن باول بعد كرّه في حرب فيتنام، ولكن على عكس عنترة الذي نال بزواجه من ابنة عمه صك اعتراف به وبذريته غير قابل للاسترجاع، تم استرجاع الهبة البوشية من باول عندما لم يحسن الكر في السياسة في حرب العراق، فنحي عن الخارجية واستبدل بانثى سوداء معقمة. يبدو المغزى واضحا: قد تحتاج السياسة الامريكية بين الفترة والاخرى وجها خارجيا اسود ولكنها داخليا لا تسمح للدم الاسود بالتدفق في شرايين دورات الثروة والسياسة.

اضافة الى تاثر تاريخ الشعوب بالسلوك الاناني الذكري فان برايان سايكس يبحث في كتابه المسمى (لعنة آدم) التاريخ المحلي لبعض العائلات التي حققت انتشارا ما لاسمها، ومنها عائلة (سايكس) التي ينتمي اليها، هنا يعترينا فضول اكيد نظرا لما يمثله اسم (سايكس) من تداع للذهن العربي مرتبط بواحدة من اكبر المؤامرات التي تعرض لها التاريخ العربي الحديث، وهي اتفاقية سايكس ـ بيكو، ولكن المؤلف يخيب ظننا بقوله ان ارتفاع نسبة الذكور في عائلته (لان انتشار العائلة مرتهن بعدد ذكورها) التي نشات في طبقة الفلاحين في القرن الثالث عشر في يوركشاير يبدو غريبا من دون حيازتها للثروة والقوة والالقاب (وفي رايه ان الانانية الفائقة للكروموسوم الذكري هي القوة الخفية التي تربط نفسها بهذه العوامل لتضمن الانتشار الفائق)، ويبدو ان برايان سايكس لم يسمع بابن عمه مارك سايكس المندوب السامي البريطاني والذي كان علاوة على منصبه يحمل لقب (سر) ورثه عن ابيه .. كما ورث منه ايضا مقاطعة كاملة! على كل حال ربما كان المؤلف ابنا صغيرا لابناء صغار بدورهم فابتعد خط عائلته المباشرة عن خط الغنى والالقاب التي تذهب الى الذكر البكر وتحرم من دونه. ما يثير الاهتمام هنا هو بحثه الجيني في عائلة اخرى واسعة الانتشار في المجتمع الانكليزي ليجد انها تنتهي الى مجرم عاش في القرن الرابع عشر، وكانه بذلك يؤكد النظرية في ان ارتفاع انتاج الذكور في اية عائلة مرتبط دائما بقدر من السلوك العدواني للرجال، وان هذه العدوانية والانانية هي نفس الدافع الذي يجعلهم يتهالكون على احرازالثروة والقوة. في كتاب صدر قبل اشهر اسمه (الجمعيات السرية لمجتمعات الصفوة الامريكية) مؤلفه ستيفن سورا يفصل تاريخ العائلات الشهيرة في الحكم او في الثروة في المجتمع الامريكي ويرجع مع